الشابشتي

صاحب كتاب الديارات

=١=

بقلم : الاستاذ عبد الحميد الدجيلي

للديارات اثر عظيم في الادب العربي وشهرة معروفة فيه . وقد كانت سبباً فعالا في انتاج كثير من الآداب المجونية وعاملا مهما في تكوين جبهة خاصة في الادب العربي حتى كاد يفوق نواحي كثيرة اخرى فيه وقد كثرت الحكايات الظريفه عن الديارات والنكات البديعة وكثر فيها ذكر مجالس الطرب والغناء والانس وكثر ذكر البدائه الشعرية . وقد بقي لدينا في هذا الباب كتاب واحد فقط هو كتاب الديارات للشابشتي ولم أجد احداً في أيامنا عقد له فصلا خاصا به فاحببت ان اعقد هذا الموضوع لترجمة هذا المؤلف وأثره وأثر الديارات على الادب العربي ؛ لان هذا المؤلف أصبح منذ القرن الرابع المرجع المهم في الباب على رغم من الف بعده من الكتاب في هذا الموضوع .

(٢) ترجمته :

الشابشتي هو ابو الحسن على بن محمد الكاتب الاديب الفاضل الشاعر المؤرخ تعلق بخدمة العزيز بن المعز الفاطمي صاحب مصر فولاه امر خزانته وجعله (دفتر خوان) يقرأ له الكتب ويجالسه وينادمه وكان فكها جميل المحضر حسن المعاشرة ظريفا وله مؤلفات حسنة منها كتاب الديارات ذكر فيه كل دير بالموصل والعراق والشام ومصر والجزيرة وله كتاب اليسر بعد العسر ، وكتاب مراتب الفقهاء وكتاب التوقيف والتخويف وكتاب المراسلات وكتاب ديوان شعره وكتاب في الزهد والوعظ وقد اختلف في زمن موته فياقوت يقول انه مات سنة (٣٩٩) في أيام الحاكم بن العزيز وابن خلكان يقول انه مات سنة ٣٩٠ وينقل ابن خلكان عن المسبحي انه مات عام (٣٨٨) هـ وقد وقع ياقوت في غلط فترجم له في باب المحمدين فقال هو محمد بن اسحق ابو عبد الله الشابشتي وفي اثناء الترجمة تردد في ذلك فقال (نقل لي بمصر بعض من اختبرت صحة نقله انه ابو الحسن على بن احمد والله اعلم .) ومن المعلوم ان ما نقل له هو الصحيح . والشابشتي لقب فارسي سياسي ماخوذ من شاه اي ملك وبشت اي خلف فيكون معناها الشخص الذي يمشي خلف الملك والمانع الناس عن مزاحمته.

(٢) وهذه الوظيفة هي المسماة باللغة العربية بالحاجب والغريب ان هذه الشرح للكلمة لم يتضح لابن خلكان على رغ اطلاعه على الكلمات الفارسية ولم اعثر على تاريخ ولادته ولا المحل الذي درس فيه ولكنني رايته يقول في كتابه الديارات في اثناء الكلام عن دير قني في ترجمة ابن جمهور القمي (.. وكنا نحضر مجلسه بالبصرة فيملي اخبار اهل البيت عليهم السلام وغيرها ..) وهذا يدل على ان الشابشتي كان في البصرة وتلقي دروسه هناك ولا يبعد ان يكون من اهلها وبرابطة التشيع ذهب الى الفاطميين بمصر واتصل بهم اتصالا وثيقا . ومن التحريفات المضحكة ان يأتي القائمون على طبع معجم الادباء في مصر فيجعلون عنوانه الشابستي بالسين ثم يعلقون في الحاشية بقولهم والشابست مدينه في مرو . وهذا غلط فضيع لان ابن خلكان الضابط المحقق ضبط الاسم بالشينين وتحير في تفسير الكلمة ولكنه جزم بانها تعني الحاجب وكذلك مرغليوث المستشرق الشهير والطابع الاول لمعجم الادباء ضبطها بالشينين ليس غير .

(٣) الديارات واثرها في الادب العربي وشرح بعض الالفاظ والمصطلحات في هذا الباب :

الديارات جمع دير ويجمع ايضاً على ديورو اديرة وديرة وادبار ويسمى الدير احيانا بالعمر وجمعه اعمار ماخوذ من الارامية بمعنى المنزل والبيت . (٢) ويخف بالدير احيانا او تكون في داخله بنايات كالمنابر عالية يسكنها راهب واحد ويقال لها القلالى او القلايات ومفردها على الاول قلية وعلى الثاني قلاية وهي كلمة يونانية [٣] بمعنى الصومعة ويحتمل بعض الباحثين انها عربية محرفه من الخلية التي جمعها خلايا لان هذه البنايات تشكل احيانا نظام الخلايا حول الاديره ، وتوجد بنايات اصغر من القلايا

(١) هذا رأي ارتايته انا في تفسير هذه الكلمة التى ترددفي معناها

[٢] الديارات لحبيب زيات [٣] المراجع السابق

تسمى الاكيراح على التصغير وردت في الشعر العربي ومفردها كيرح وهي مسكن للرهبان ممن لا قلالي لديهم . والكلمة يونانية تعني الكوخ .

وقد ألف رجال الأدب والعلم من المسلمين كثيراً في هذه الديارات وما فيها وما حولها من مبان وحانات وقدور ضيافة وما كان يحدث هناك وبين جدرانها من مجون وزهد وسكر وعربدة وعبادة واول من ألف في ذلك هو هشام بن محمد الكلبي وتبعه جملة آخرون كأبي الفرج الاصبهاني والسري الرفاء وغيرهما وتوسع ياقوت في معجم البلدان بذكرها وكذلك ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار. ولكن اغلب هؤلاء اقتصر على وصف مجالس اللهو والقصف والمنكرات والخمور والحانات وما يتبع ذلك من زيارات اهل الترف من الملوك والأمراء والشعراء والادباء .

وقد كانت هذه الأديرة موصوفة بالخمور العتيقة الجيدة كما هي موصوفة بجمال البناء وطلاقة الهواء . ولسر في انتشار الخمر فيها ان من اللازم في الطقوس المسيحية حينما يصلي الراهب أو القسيس ان يشرب خمراً قليلا جداً كأكشتبان قبل الصلاة ومن هذه العادة تولدت هذه التوسعات في السكر والاهتمام بالخمر .

وكانت هذه الأديرة تهتم بتنظيم حياتها المعاشية بنفسها فتكون حقلا حولها ومرعى جميلا ورياضاً حسنة الازهار والرياحين وكانوا هم يحيون الزائرين بذلك ويسمونها التحية ؛ قال الشابشتي في بحثه عن دير [درمالس] : [حضرا حداث الموضع ممن كان يقضي لنا الحاجة ويجيئنا بالطرفة والتحية .] والمراد بالتحية كما قلنا الهدية من طرائف الرياحين ونفائس الأزهار ونحوها وكانت عادة تقديم الزعفران في بعض الاديرة التي كانت تزرعه منتشرة مضافا الى ذلك انهم كانوا يقرمون بلوازم الضيافة حتى كانت لهم محلات خاصة لذلك قال الشابشتي في بحثه عن دير يوحنا الى جانب تكريت [.. ولا يخلو من المتطربين والمتنزهين ولا من مسافر ينزله ولكل من طرقه من الناس ضيافة قائمة على اقدار المضاف لا يخلون بها ..)

وكان فيها وحولها حانات لبيع الخمور المعتقة مما يدفع اهل الترف والمجون لزيارتها ولاسيما في اوقات اعياد المسيحيين الذين يأمون هذه الأماكن ؛ قال الشابشتي في بحثه عن دير سابر ... هو في الجانب الغربي من دجلة في بقعة كثيرة البساتين والكروم والثمار والحانات والخمارين .. ؛ وكانت هذه الحانات مجمع كثير من الخلفاء والوزراء وقد ذكر الشابشتي في كتابه كثيراً من رجال الأدب والفضل والرئاسة ممن كانوا يقضون الأيام الطوال هناك حتى قال في ترجمة محمد بن عبد الرحمن الثروائي «انه رؤي في حانة هناك بين زقي خمر وهو ميت »

ولا بد لهذه الظاهرة من غزل وتغزل وما يتبع ذلك وقد ساعد على ذلك ان هذه الاديرة كانت دور علم وتعليم للرهبان والقسس ومن المستحسن جداً عند المسيحيين أن يكون الصبي الذي يتعلم الطقوس المسيحية ليقوم بواجب التبشير الديني جميلا كامل الخلقة سليما من العيب حسن الصوت بديع الترتيل ليؤثر على الناس ويكون مقبولا لديهم محبوبا عندهم . وقد استغل هذه الظاهرة هؤلاء الزائرون . فكثر التغزل بالراهبين من شبان الأديرة والراهبات من صباياها واطلقوا العنان في الوصف للمنادمة والمجالسة والمداعبة وما يتبع ذلك ولا شك ان في بعض هذه المقطعات والحكايات النادرة التي وردتنا في هذا الباب مبالغة تخرج عن حد المعقول اذا فرط بعضهم حتى جعل هذه المحلات الدينية بمنزلة المواخير ودور القيادة ولا شك ان ذلك من باب « اعذب الشعر اكذبه » ومن الغريب اننا لم نر احداً من هؤلاء الشعراء اهتم باسرار اهل هذه الاديرة فوصف لنا الطرق التعليمية الدينية التي لديهم او المكتبات التي كانت في تلك الاديرة أو نحو ذلك مما لا يخلو منها كل دير اذ الأديرة كانت في كل القرون المسيحية مدرسة لهؤلاء القسس المتعلمين والمعلمين .

يتبع

عبد الحميد الرحيلي

للسيد حسين القزويني البغدادي

حيتك تسحب للهنا أذيالها ... غيداء مارأت العيون مثالها

بيضاء ناعمة الشبيبة غضة ... رسمت بمرآة الهوى تمثالها

جعلت عقارب صدغها حراسها ... من لثمها وجمودها أفعى لها

قد زين الزند الجهي سوادها ... حسناً وزين ساقها خلخالها

حوراء حالية المعاصم والطلى ... عشق المتيم غنجها ودلالها